مجلة الإحياء، المجلد 26، العدد: 38، جانفي 2026، ص - ص: 567-586
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

إسهامات الحركة الإصلاحية في تثبيت الثّقافة الوطنية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية (1926- 1938)
(الحركة التعليمية عند أبي اليقظان نموذجا)

The contributions of the reform movement in establishing Algerian national culture during the colonial period (1926-1938)
(The educational movement according to Abu Al-YaKDan is an example)

أ.د/ الرزقي خيري
Rezki KHIRI
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة باتنة 1
مخبر الحركة الوطنية الجزائرية والثورة التحريرية
rezki.khairi@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2024/11/09 تاريخ القبول: 2026/01/07

الملخص:
كان رجال الحركة الإصلاحية هم من تصدّى لهذه السّياسات الفرنسية المغرضة والخبيثة عن طريق التّكفّل بالنّشاط التّعليمي العربي وتخصيص حيّزٍ كبيرٍ من اهتماماتِها به ومحاولة العمل على استمراره ونشره بشتّى الطّرق والوسائل، ومن بين هؤلاء المصلحين كان الشّيخ إبراهيم أبو اليقظان وحركته المنطلقة من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ونشر أفكاره في مجال التّعليم من خلال صُحفه الحرّة الثّمانية، حيث دعا إلى تحقيق التّعليم العربي الحرّ الهادف وقدّم سبل إنجاحه والعراقيل التي يتعرّض لها، متطرّقا أيضًا إلى واقع التّعليم الفرنسي الموجّه إلى أبناء الجزائريين ومقترحًا نوعًا جديدًا من التّعليم وهو التّعليم الصّناعي أو التّعليم المهني بغية اكتساب حرفٍ جديدة.
الكلمات المفتاحية: التعليم؛ الحركة الإصلاحية؛ أبو اليقظان؛ الجزائر؛ الثقافة الوطنية.

Abstract :
The reform movement men were the ones who confronted these malicious and malicious French policies by taking charge of Arab educational activity and allocating a large part of their interests to it and trying to work on its continuation and dissemination in various ways and means. Among these reformers was Sheikh Ibrahim Abu Al-YaKDan and his movement that was launched from the Association of Algerian Muslim Scholars and the dissemination of his ideas in the field of education through his eight free newspapers, where he called for the achievement of free and purposeful Arab education and presented ways to make it successful and the obstacles it faces, also touching on the reality of French education directed at the children of Algerians and proposing a new type of education, which is industrial education or vocational education in order to acquire new professions.
Keywords: Education; Reform Movement; Abu Al-YaKDan; Algeria; National Culture

مقدّمة:

كانت الثّقافة الوطنية الجزائرية ذات الطّابع العربي الإسلامي محلَّ استهداف جميع السّياساتِ الفرنسية المطبّقة في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية والهادفة إلى محو مقوّماتِها من الوجود وتعويضها بالثّقافة الغربية ذات الطّابع المسيحي، حيث كان التّعليم بأنواعه هو المستهدف بالدّرجة الأولى وخاصّةً التّعليم العربي الحرّ الممارس في الزّوايا والكتاتيب القرآنية وغيرها من الأماكن الأخرى رغم أنّ هذا النّوع من التّعليم كان بتمويلٍ ذاتيٍ وتطوّعيٍّ غالبًا من قِبل الجزائريين بغية الحفاظ على اللّغة والهوية. وهذا ما ترفضه السّياسة الفرنسية .

وتكتسي هذه الدراسة أهمية بالغة في الدراسات التاريخية المهتمة بتاريخ الحركة الإصلاحية بالجزائر، حيث تعد من بين الاهتمامات التي سلطت الضوء على الحركة التعليمية التي هي في الحقيقة قوام العمل الإصلاحي الهادف إلى المحافظة على مقومات ومكنونات عناصر الثقافة الوطنية التي طالما كانت مستهدفة من قبل سياسة الاحتلال الفرنسي.

وقد عالج أبو اليقظان موضوع التعليم العربي الحر في الجزائر من خلال العديد من المؤلفات والمقالات المنشورة في صحفه الثمانية، وعلى كثرتها يمكن أن نذكر بعضا منها، مثل المقالات المنشورة في جريدة وادي ميزاب وجريدة المغرب وجريدة النور كما هو موضح في قائمة مصادر البحث، إضافة إلى مؤلفات منها: إرشاد الحائرين، موجة الإصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري، جريدة البصائر، ع01 (1935/12/27)، السنة1. بيان حقيقة، المطبعة العربية، الجزائر، 1931م. الديوان، ج1+2 مختارات من صحف أبي اليقظان وكذلك تاريخ صحف أبي اليقظان، ولكن في الحقيقة تبقى المقالات التي نشرها أبو اليقظان في جرائده هي الأكثر حديثا عن هذا الموضوع بالضبط.

كما توجد هناك العديد من الدراسات التي تناولت موضوع التعليم العربي الحر عند أبي اليقظان وعلى الخصوص ما كتبه محمد ناصر، منها مؤلف أبو اليقظان وجهاد الكلمة، وكذلك أبو اليقظان وقواعد البناء والإعداد والتربية، ولنفس المؤلف نجد كتاب مختارات من مقالات الشيخ أبي اليقظان في جريدة الأمة إلى جانب ما كتبه الأستاذ محمد جهلان، مثل قضايا الإصلاح الاجتماعي في مقالات جريدة الأمة وما كتبه أيضا محمد زغينة، مثل فن المقال في كتابات أبي اليقظان، وعبد الله الركيبي في كتابه قضايا عربية من الشعر الجزائري المعاصر دون أن نفوت ما عالجه الأستاذ أحمد فرصرص.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نطرح الإشكالية الرّئيسة التّالية: ما مدى مساهمة النّشاط التّعليمي الإصلاحي الذي دعا إليه أبو اليقظان وكافة أقطاب الحركة الإصلاحية عموما في الجزائر في الحفاظ على الثّقافة الوطنية؟ وما أهمّ العراقيل والصّعوبات التي اعترضته؟.

وتندرج تحت هذه الإشكالية إشكالات فرعية منها: ما أهم الطرق والوسائل التي تم اقتراحها لتلقين هذا التعليم العربي الحر؟ وما النتائج المرجوة منه؟ وما مدى إسهام باقي أقطاب الحركة الإصلاحية فيه؟ وكيف تعاملت معه سلطات الاحتلال الفرنسي؟.

يهدف المقال إلى التّعرّف على وجهة نظر الحركة الإصلاحية بالجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي إلى موضوع التّعليم العربي عمومًا وإلى موضوع الثّقافة الوطنية خصوصًا ممثّلةً في أفكار أبي اليقظان الإصلاحية، كما تهدف أيضا إلى معرفة أنواع التّعليم بالجزائر في هذه الفترة ومقوّماتِ كلّ نوعٍ منها والفوائد المرجوّ تحقيقها من كلّ مجال، إضافةً إلى هدف معرفة موقف سلطات الاحتلال الفرنسي من هذه الحركة التّعليمية الدّؤوبة.

أوّلاً- التّعليم العربي الحرّ

واقعه: كان موضوع التّعليم بأنواعه، خاصّةً العربيّ منه قد طغى كثيراً على صحف أبي اليقظان أين استعرض محطّاتٍ عدّة منطلقاً من واقعه المعيش إلى سياسة الإدارة الفرنسية الرّامية إلى القضاء عليه معرّجًا على دور الجزائريين في الحفاظ عليه ومقدّمًا أساليب إنجاحه وطرق تلقينه، وكأّنه يقول أن لا مناص للأمّة الجزائرية في كافّة القطر من التّعليم العربي واكتساب مختلف العلوم الحديثة دون التّركيز على التّعليم التّقليدي، بل دعا حتّى إلى إحداث تعليمٍ مهنيٍ وتأسيس مدارسَ خاصّة.

لقد أولى أبو اليقظان اهتمامًا بالغًا للتّعليم، وهي قناعة كانت موجودةً لدى عموم رجال الحركة الإصلاحية، فطالما حثّ على اكتسابه وتسهيل طرقه لتخريج جيلٍ متعلّمٍ تعليمًا صحيحا، خاصّةً وأنّ وضع الجزائر ازداد سوءًا في هذا المجال منذ دخول الاحتلال الفرنسي الذي سعى جاهدًا بكلّ طرقه ووسائله المتاحة إلى محاربة التّعليم العربي الحرّ لذلك نوّه إلى ضرورة اكتساب التّعليم الصحيح، واعتبر أنّ فترة الاحتلال قد أدّت إلى انطفاء نور العلم في الجزائر، إذ قال: "أمّا التّعليم في وقتنا فقد كاد ضوؤه ينطفئ إن لم نقل أنّه انطفأ تمامًا"[1].

وأرجع أبو اليقظان أسباب تراجع التّعليم والمستوى التّعليمي في الجزائر إلى عدّة مسبّباتٍ منها ما يتعلّق بالسّياسة الفرنسية تجاهه، ومنها ما يتعلّق بطرق تلقينه في حدّ ذاتها، وعقم طريقة التّدريس التي اعتمدت التّلقين والتّحفيظ التّقليدي، وكحلٍ للنّهوض بقطاع التّعليم اقترح على الأولياء عدم تكليف أبنائهم بغير التّعليم مع ضرورة حثّهم على اكتساب المعارف إضافةً إلى اختيار أكفأ الأساتذة وذوي الخبرة، فقال: "وما دمنا لا نعهد بأولادنا إلى أساتذة مهرةٍ أكفاءَ يوصلونهم إلى درجة الرّجال العاملين، وتُثقّف عقولهم بعلوم خاليةٍ من الأوهام والخرافات، وما دمنا لا نعتبر ذلك أقدس عملٍ نتقرّب به إلى أمّتنا وأولادنا، وما دمنا لا نناقش أبناءنا الحساب، فقد عزّ دواؤنا وضللنا السّبيل"[2].

بهذه النّصائح يمكن أن يكون هناك تعليمٌ ناجح، وهي الطّرق التي أثبتتها الأبحاث والبيداغوجيا المعاصرة حول محاور العملية التّربوية التي تدور حول المعلّم، والمتعلّم، والطّريقة، ومغزى أبي اليقظان من وراء هذا تكوين جيلٍ مثقّف ومتعلّمٍ يقوم بعملية توعية الأفراد، وهي ركيزةٌ أساسيةٌ عند تيّار الحركة الإصلاحية.

أسسه الصّحيحة: زيادة على هذا الاهتمام من أبي اليقظان تجاه التّعليم، فقد آمن دائمًا بأنّ العلم هو الطّريق الصّحيح لبلوغ أيّ غاية، لذلك تصوّر أسسه وطرقه الصّحيحة، كما اعتقد أنّ كلّ السّعادة هي المتمثّلة في العلم، فوجب على الأمّة الاهتمام بالتّعليم والانصراف إليه بجدّية بغية الوصول إلى علمٍ نافع، ولا يتأتّى ذلك إلاّ إذا اهتمّت بأمور عدّة، منها ما يلي:

أوّلاً: ضرورة التّركيز على المعاهد العلمية الموجودة، سواءٌ من النّاحية الأدبية أو المادّية، وتكييفها بما يستقطب ويستهوي طلاّب العلم.

ثانيًا: ضرورة زيادة عدد المعاهد كي تتماشى مع تطوّر وزيادة عدد السّكان في شكلٍ هندسيٍ صحّيٍ وعصري.

ثالثًا: تحسين أسلوب التّعليم، ويبدو هذا ركيزةً أساسيةً في تحقيق العلم النّافع، وكذلك إدخال مناهجَ وأنظمةٍ عصريةٍ عليه في المعاهد، وذلك من أجل الوصول بالتّلميذ "إلى أبعد مدًى في أقلّ زمن، ولئن لم يكن هذا بتقليد مناهج المدارس النّظامية فلا أقلّ من أن يستقي منه ما يلائم الذّوقَ الأهلي فيتدرّج به تبعًا لتدرّجه في العلوم"[3].

رابعًا: انتقاء الكتب القيّمة التي تدرّس في المعاهد، حيث يكون المعيار في ذلك هو آخر ما وصلت إليه العلوم والأبحاث في كثيرٍ من فنون التّعليم، كالتّاريخ والتّوحيد، والفقه وغيرها.

خامسًا: بناء وتأسيس المكاتب العلمية العمومية في التّجمّعات السّكّانية المهمّة، وتزويدها بأمّهات الكتب، قصد تسهيل المطالعة والمراجعة للمهتمّين والباحثين.

سادسًا: الاعتماد على نظام إرسال البعثات العلمية إلى مراكز العلم والإشعاع، كتونسَ التي وُجّهت إليها بعثاتٌ علميةٌ ميزابيةٌ كان منها ما هو تحت إشراف أبي اليقظان نفسه، والهدف من هذه البعثات هو استكمال العلوم وتوسيع المدارك، هذا مع ضرورة منحها كلّ المساعداتِ لتحقيق أهدافها، ولكي تنجح هذه الأسس يرى الشّيخ أبو اليقظان أنّه من الضّروري توحيد جهود طبقات الأمّة حسب جهد وقدرة كلّ طبقة، فالطّبقة الأولى هي التي يمثّلها العلماء والمفكّرون والذين وجب عليهم القيام بإزالة الشّحناء والبغضاء بينهم كي تكون جهودهم موحّدةً وبالتالي يقدّموا للأمّة خدماتٍ هامّةً في مجال التّعليم، كما أنّ طبقة العلماء والمفكّرين وجب عليها أيضًا السّفر إلى الأوساط العلمية الحيّة بغية معرفة الحركات الفكرية العصرية والاطّلاع على مناهج المدارس الحديثة لاختيار ما هو ملائمٌ منها لتطلّعات المجتمع الجزائري ويقوم العلماء والمفكّرون أيضاً بدارسة "نفسية البلاد وما تمسّ إليه حاجتها من العلوم، وما هو المنهاج الملائم لذوقها، وما هي الكتب التي يستلزمها"[4].

هذا إلى جانب تنازل العلماء إلى من دونهم من أهل الخبرة والكفاءة لأخذ الرّأي والمشورة في مجال البحث والتّفكير لكي يكون العمل شاملاً لجميع الخيرات، خاصّةً إذا تمّ توزيع الأعمال فيما بينهم دون مشاحنةٍ ولا منافسة، وعلى أساس التّعاون والتّشاور عند اللّزوم، ومن هذه الأفكار لأبي اليقظان حول ما يجب على طبقة العلماء تجاه التّعلّم نخلص إلى كونهم هم محور العلمية الأساسي، وكلّ إخفاقٍ أو إهمالٍ في دورهم يترتّب عنه ضياع التّعليم الصّحيح، وما دام اكتساب العلوم يتطلّب وضعًا ماديًا للتّكفّل بحاجياتِه فقد خصّ أبو اليقظان طبقة الأغنياء باهتمامٍ واضح، واعتبرها هي الطّبقة الثّانية بعد العلماء، حيث حدّد دورهم في المهامّ الآتية:

- ترك الإسراف والإنفاق فيما لا ينفع- الاقتصاد في سائر النّفقات.
- معرفة نوع المشاريع التي يجب الإنفاق عليها- أداء الحقوق اللاّزمة في وقتها.

وهذه كلّها أدوارٌ أرادها أن تربط وتنطلق من الاهتمام بالتّعليم ودعم طلبة العلم خاصّةً البعثات العلمية والمعاهد، أمّا الطّبقة الثّانية التي تحدّث عنها الشّيخ والتي تساهم في إنجاح التّعليم الصّحيح، هي طبقة الأولياء (الآباء)، وذلك بضرورة قيامهم بنوعٍ من التّضحية المادّية والأدبية، كقيامهم بمصاريف تعليم أبنائهم، والإنفاق عليهم إلى غاية نيلهم درجاتٍ من العلم والمعرفة، ومن لم يكن باستطاعته القيام بذلك فوجب عليه عدم صرف أبنائه إلى أمور أخرى غير العلم والصّبر على فراقهم من أجله، وفيما يخصّ التّلاميذ على أساس اعتبارهم المحور الرّئيس في عملية التّعليم[5]والذين صنّفهم أبو اليقظان في الطّبقة الرّابعة، إذ اشترط عليهم التّحلّي بصفاتٍ منها: صدق الطّلب، والعزيمة، والإخلاص في العمل، والمثابرة، والصّبر على متاعب التّعليم، والغوص في البحوث، وعدم الملل والكسل، أو الميل إلى الرّاحة والنّوم، وعليه فقد ربط نجاح التّعليم الصّحيح بتظافر جهود الطّبقات الأربع، إذ قال: "فإذا سارت الطّبقات في مداراتِها وأدّى كلٌّ واجبه، فلا شكّ أنّ شموس العلم وبذور العرفان تشرق في ربوعهم"[6].

مقرّراته الدّراسية التي دعا إليها أبو اليقظان: لم يقتصر فكر أبي اليقظان على الدّعوة إلى العلوم والمعارف المتعارف عليها لدى عامّة النّاس، من حفظ للقرآن الكريم، أو دراسة بعض المتون والكتب، بل دعا إلى اكتساب باقي العلوم الأخرى خاصّةً العصرية منها، مع مراعاة ما يرتبط منها بحياة الأمّة مباشرة، وما تحتاجه من هذه العلوم التي قال عنها أنّها مرتبطٌ بعضها ببعض، وأنّ فائدة بعضٍ منها لا تظهر إلاّ بدارسة الأخرى، ومن هذه العلوم التي تُعدّ برامجَ أو مقرّرات، والتي دعا إليها نجد:

- **علم التّوحيد**: والقائم على وحدة الإله، وبالتّالي تصحيح العقيدة التي يهدّدها كلّ خللٍ خارجٍ عن نظام التّوحيد، وعليه وجب تفادي الشّبهات، وباقي الضّلالات الأخرى التي من شأنها أن تخلق فردًا غير نافعٍ في المجتمع.
- **الأخلاق**: وهي ركيزة العملية التّعليمية عبر العصور، وفي مختلف الدّول، إذ بها تُبنى العملية التّربوية، وهي مقصدها في حدّ ذاته، إذ قال أبو اليقظان: "وهذا هل يكون بغير التّثقيف والتّهذيب والتّربية الصّحيحة، ودراسة علم النّفس واستجلاء الأخلاق الفاضلة... وإهمال هذا الفنّ من مناهج التّعليم ضررٌ كبير، وخطرٌ عظيمٌ على البشرية كما هو مشاهد"[7].
- **علم التّفسير**: تفسير الآيات القرآنية للاستفادة منها، وإزالة الغموض من حولها، قصد الانتفاع في الحياة اليومية.
- **علم الحديث**: على أساس اعتباره مفسّرًا ومبيّنًا للقرآن الكريم.
- أصول الفقه: وقد عدّه أبو اليقظان ضروريًا جدًّا نظرًا للنّوازل التي أصبحت تظهر كلّ يومٍ نتيجة الحضارة والتّكنولوجيا فهو ضروريٌ بقصد معرفة منابع الاجتهاد، وكيفية الاستنباط والتّشريع وتطبيق الحوادث الجزئية على الكلّية.
- **تدريس العلوم العربية** بأنواعها من لغةٍ وأدبٍ وبلاغةٍ وصرف- تدريس الفقه على نوعيه سواءٌ العبادات أو المعاملات.
- **تدريس التّاريخ** لمعرفة تاريخ الأمّة العربية "وأنّ إهمال هذا الفنّ إهمالٌ لمصادر الحياة وجهلٌ لمنابع سعادة الإنسان وطمسٌ لمعالم المجد وآثار الأجداد الخالدة"[8].
- **تدريس الجغرافيا** بأنواعها المختلفة لمعرفة مواقع البلاد، ودراسة السّكّان وأنواع المحاصيل، وأنظمة الحكم قصد معرفة أساليب الحياة لدى الأمم والشّعوب، وأنّ عدم دراستها كالحياة في قفصٍ دون نوافذ - دراسة الطّبيعة لمعرفة كمائن الأشياء الموجودة فيها- دراسة الكيمياء لمعرفة تحليل الموادّ وتركزيها، والتّوصّل إلى صناعة الأدوية وغيرها، وعدّ أبو اليقظان أنّ دراسة الطّبيعة والكيمياء هما السّبيل لدراسة الطّبّ- تدريس الطّبّ "وهو ذلك الفنّ الجليل الذي به تلطف وطأة القضاء، وتخفّف الويلات عن بني الإنسان"[9].
- **تدريس الحقوق** لتحديد الحقوق والواجبات، وضبط العلاقات بين الحكومة والأمّة والأفراد، ومعرفة كيفية حلّ الخلافات وردّ الحقوق المسلوبة، وقد ربط أبو اليقظان دراسة الحقوق بدراسة الفقه الإسلامي- تدريس العلوم الرّياضية، مثل الهندسة والحساب والجبر، والمقاييس والمكاييل بغية تسيير المصالح الاقتصادية تسييرًا حسنا، وهي مرتبطةٌ بعلم المواريث والقِصاص وتقسيم الأراضي، وضبط الأعمال الأخرى- تدريس علم الاقتصاد السّياسي والعملي، ومسك الدّفاتر، وباقي الأنظمة المالية بهدف تسيير التّجارة أو إحكام استثمار رؤوس الأموال.

- **تدريس اللّغات الأجنبية الحيّة**، إذ وضع أبو اليقظان على رأسها الفرنسية التي لها علاقةٌ مباشرةٌ مع الجزائري آنذاك.

وأضاف أبو اليقظان لهذه العلوم باقي العلوم الأخرى التي تكتشف من حينٍ لآخر، كعلم الطّيران والكهرباء، وبهذه العلوم والمناهج السّتّةَ عشر والتي دعا إليها يمكن أن يكون هناك تعليمٌ نافع، كما يظهر أبو اليقظان هنا من الشّخصيات الدّاعية إلى التّجديد والعصرنة في مجال التّربية والتّعليم دون التّقليد الأعمى، وتجدر الإشارة إلى أنّه قد وضع ضوابط من أجل إنجاح تدريس هذه المناهج والمقرّرات، كمراعاة السّهولة والصّعوبة فيها، وكذلك سنّ المتعلّم (عمره) ومرحلته التّعليمية التي هو فيها، مع الأخذ بعين الاعتبار الاستعداد الجسمي والعقلي والخلقي، إذ قال: "هذه هي العلوم التي نحتاجها لإعزاز ديننا وقوميّتنا وبلادنا، غير أنّ توزيعها على أبناء الأمّة ليس على نسبةٍ واحدةٍ لاختلافها سهولةً وصعوبة، ووضوحًا وخفاء، ولاختلافهم أعمارًا واستعدادا، وإنّما يكون على حسب أعمارهم وأطوارهم واستعدادهم الجسمي والخلقي، وقد تكفّل بتفصيل هذا علماء التّربية الحديثة"[10].

الدّعوة إلى عصرنة قطاع التّعليم وإصلاحه (اكتساب العلوم الحديثة): دعا أبو اليقظان إلى اكتساب العلوم الحديثة (العصرية) كالطّبيعة والفلسفة والرّياضيات والطّبّ والفلك، وأحدث ثورةً تجاه الدّاعين إلى الجمود والالتزام بالعلوم الدّينية فقط، واعتبر أنّ الأمّة الجزائرية كي تحيا وتساير الأمم لابدّ لها من العلوم العصرية على أساس أنّها هي المتداولة، وهي التي تُلمّ بجميع نواحي الحياة الإنسانية، وهنا أوردت وادي ميزاب ما نصّه: "إنّ علوم الحياة كالطّبيعة والرّياضيّات والفلك والفلسفة الصّحيحة لابدّ منها للإسلام خصوصًا في هذا العصر... وإنّ العلوم الكونية لا تختصّ بها أمّةٌ دون أخرى لأنّها ضرورية..."[11].

ومن أجل الإقناع استشهدت الجريدة بعدّة أمثلةٍ من التّاريخ، وحتّى من الدّين والتي لا تعارض اكتساب العلوم الحديثة بل تشجّع عليها، وذلك عن طريق ربط العلاقة بأنّ الدّين يحتاج في استقامته إلى الدّنيا، والدّنيا لا تستقيم إلاّ بالعلم والعمل والمنافسة للأمم الحيّة، ومن الواضح أنّ هذه الدّعوة لاكتساب العلوم الحديثة هي دعوة لمسايرة التّطوّر الحاصل في باقي الأمم الأخرى، كما هي دعوةٌ إلى العيش في حرّيةٍ نتيجة تنوير العقول، ففكرة أبي اليقظان تجاه التّعليم فكرةٌ ثائرةٌ ضدّ الجمود والخمول والخمور وهادفةٌ إلى عصرنة القطاع.

إنّ الدّعوة إلى عصرنة قطاع التّعليم والدّعوة إلى إصلاحه كانت دائمًا مطلبًا وركيزةً أساسيةً في صحف أبي اليقظان وتناولته كلّ الأقلام التي كتب فيها بما فيهم أبو اليقظان نفسه الذي يعيب الطّرق التّعليمية التّقليدية القائمة على التّلقين وتعلّم الأمور الدّينية فقط، بل شجّع على الأخذ بالجوانب المستحدثة فيه، وإصلاحه إصلاحًا يتماشى مع الدّين والأخلاق، وتلقين باقي العلوم الأخرى، إذ نادت وادي ميزاب بأن تُوسّع: "دائرة التّعليم قليلاً بقدر ما يفي بضرورة الحالة ممّا لا يخرج عن دائرة الشّرع العزيز ... فبذلك يحتوي التّلميذ في آنٍ واحدٍ على قراءة القرآن والحديث والفقه... وبذلك ينمو في قلبه الأمل ويتسنّى له التّدرّج في معرج العلوم والمعارف شيئًا فشيئا"[12].

وأكّد أبو اليقظان على ضرورة اكتساب العلم الصّحيح لخدمة الأمّة والدّين والوطن، فقد قسّم أفراد المجتمع إلى فئةٍ تعمل للصّالح العامّ وخدمة المصلحة العامّة، ويدافعون عن حقوق أمّتهم والإعلاء من شأنها... وهي الفئة التي يرى أنّها هي التي تلقّت التّربية والتّعليم الصّحيحين، بينما الفئة الأخرى فتعمل على عكس الأولى، وتبثّ الخلافاتِ وتخرّب مجد الأمّة وتنتهك حرماتِ الدّين، وهي الفئة البعيدة عن العلم الحقيقي، ومن هنا يتّضح أنّ اكتساب العلوم الصّحيحة من شأنه أن يدفع بالأمّة إلى ما تتطلّع إليه من

أهداف ومشاريع، وهذا ما تمثّله الفئة الأولى التي قال عنها أبو اليقظان: "طابت أنفسهم بالأخلاق الفاضلة وغُذّيت أرواحهم بالتّعليم الصّحيح، وشبُّوا على الوطنية الحقّة والحرّية والاستقلال"[13].

والأكيد أنّه عند إنتاج قاماتٍ تتمتّع بالعلوم والثّقافة الواسعة يسعد المجتمع ومعه الأمّة قاطبة، فنجد فيهم كلّ ما يحتاجونه، من طبيب، ومهندس، وصحفي، وغيرهم، وطبعًا لا يتأتّى ذلك إلاّ بالتّربية التي تساهم في خلق جيلٍ يعتزّ بمقوّماتِ أمّته الدّينية والوطنية.

إنّ خوض أبي اليقظان في موضوع التّعليم كان بدافع الغيرة على المجتمع الجزائري الذي تراجع فيه المستوى العلمي بفعل الاحتلال، إذ اعتبر بأنّ بقاءه في حالة الذّلّ والهوان والخمول سببه نبذ التّعليم وعدم الاعتناء به وأنّ تعلّم العلوم الصّحيحة والعصرية ونبذ كلّ الخرافاتِ هي من أسباب تقدّم الأمم، وأنّ عدم الأخذ بها يُعدّ من عوامل الانحطاط، لذلك دعت صحف أبي اليقظان إلى اكتساب العصريّ منها دون الانحصار في الطّبّ فقط الذي هو مقصد كلّ الأولياء لأبنائهم، وإنّما وجب أن يتعدّى ذلك إلى العلوم الأخرى المتعلّقة بالزّراعة، والصّناعة، وباقي المهن الأخرى، وهنا أوردت وادي ميزاب قائلة: "ألم تكن هناك علومٌ أخرى، كتعلّم اللّغات وصناعة الميكانيك، وفنّ الصيدلة، وعلوم الطّبيعة، وغير ذلك من العلوم التي قد أُمرنا بتعاطي أسبابها"[14].

بهذه الإشادة بالعلوم الحديثة والعصرية يظهر أبو اليقظان من المجدّدين والدّاعين إلى تطوير مناهج التّعليم، وتفعيل طرق اكتسابها دون الاقتصار على التّعليم الدّيني فقط، حاثًّا الأولياء على توجيه أبنائهم نحوها، ومساعدتهم على اكتسابها حتّى وإن تحتّم الأمر السّفر إلى البلدان البعيدة، وبالمقابل يرى أبو اليقظان أنّ الأمّة إذا أرادت أن تتطوّر وجب عليها ترك البدع والخرافات التي هي من مظاهر المجتمع الجاهل، ولا علاقة لها بالعقول المستنيرة المتعلّمة "ولا يمكن أن تزول إلاّ بتعليم أولادنا العلوم الدّينيةَ الصّحيحةَ الخالية من الأوهام والشّكوك"[15].

انطلاقًا من حالة التّعليم الأهلي العربي المتردّية فقد تطرّق نواب الأهالي في مجلس الجزائر العمومي بجلسته المنعقدة بتاريخ: 07 ماي 1928[16]إلى قضية التّعليم العربيّ في القرى والمداشر (الدّواوير)، وذلك بعد تقديمهم لعريضةٍ ممضاةٍ من قِبل بن التّهامي، شكيكن، زرّوق محي الدّين، إبراهيم الأخضر ... أين كان رأي هؤلاء النّواب في التّعليم بأن تقوم الإدارة بتسجيل الأطفال المتمدرسين الذين تقع مساكنهم في دائرة 5 كلم بدلاً من 3 كلم، وذلك بصفةٍ إجباريةٍ لمزاولة التّعليم وعلى السّلطات العامّة تقديم المعُونات المادّية، وتسجيل التّلاميذ، وإرسال المعلّمين المخلصين إلى المدارس النّائية التي يجهل سكّانها تمامًا التّعليم، أو يرفضون إرسال أبنائهم إليها[17]، وهنا وصفت "وادي ميزاب" الحالة التّعليمية في قولها: "حيث توجد دواوير يجهل سكّانها بتاتًا مزايا المدارس، ويرفضون إرسال أولادهم إليها رغم ما تطلبه العامّة المسلمة من التّعليم ..."[18].

إنّ التّعليم الأهلي بالقطر الجزائري كان دائمًا تحت مجهر السّلطات الاستعمارية التي أرادت توجيهه وفق ما يخدم مصلحتها، إذ في غالب الأحيان ما تحدّثت عن الجهود الموجّهة إليه لتحسين أوضاعه وتطويره وذلك قصد إيهام العامّة ومن مثل تلك المواقف المخادعة الأرقام التي قدّمها أعضاء المجلس المالي حول التّعليم في شكل مقارنةٍ ما بين سنة: 1889م، وسنة: 1928م.

وتمّ التّفكير في تعليم بنات الأهالي تعليمًا منزليًا صناعيا، وهي الدّعوة التي وجّهها أحد أعضاء المجلس المالي يُدعى السّيّد حسن وهو عضوٌ في اللّجنة الخاصّة بالتّعليم، إذ قال: "... وبذلك سيكون منهنّ النّفع للجامعة، ويمكنهنّ أن يعين كبير العائلة على أداء واجباتِ الحياة فأرسلوا إذن أمّهاتِ المستقبل إلى

المكاتب، فإذا علّمناهنّ نكون قد أدّينا واجبَ الشّفقة نحوهن، وإذا تهذّبن تهذيبًا فرنسيا فإنّهنّ يهذّبن أبناءهنّ بأخلاق فرنسية أيضا"[19].

الواضح هنا أنّ الغرض من تعليم بنات الأهالي ما هو إلاّ خدمةٌ لتكوين جيلٍ فرنسيٍ من أصول جزائرية، وسبب ذلك هو برامج التّعليم المقدّمة لهنّ والتي تكون وفق المبادئ والقيم الفرنسية، وحول موضوع تعليم البنات المسلمات في الجزائر ذهب الحاكم العام – بورد Bordes- في خطابه بالمجلس الأعلى أين ذكّر بما تبذله حكومته في سبيل الاهتمام بالمرأة، إذ قدّم رقم 22 مكتبًا ابتدائيًا خاصًّا ببنات الأهالي به 2386 بنت، حيث قال: "وهذا الصّنيع من الدّعاية الحسنة، وهو من الأهمّية بمكان، كما أنّه نافعٌ لرفع مستوى المرأة الأهلية وليتمكّن من الاستضاءة بالتّهذيب الفرنسي[20].

كما أسلفنا في محطّاتٍ سابقةٍ أنّ موضوعَ تعليم البنت المسلمة هو موضوعٌ مرفوضٌ لدى زعماء الإصلاح وعلى رأسهم الشّيخ عبد الحميد بن باديس، والشّيخ أبو اليقظان إذا ما تعلّق الأمر بالتّعليم الفرنسي، لما فيه من أخطار وتشجيع على التّفرنج[21]، وبالمقابل دعا هؤلاء إلى تعليمها تعليمًا عربيًا مسلمًا يتماشى مع طبيعتها كامرأة، وممّا نلاحظه على أبي اليقظان أنّ اهتمامه بالتّعليم يزداد عندما يحلّ موسم الدّخول المدرسي، فنجده يكتب المقالاتِ المستفيضة حول حالة التّعليم وطرقه، ومناهجه المتّبعة، ونوع التّعليم المقدّم، ومن خلال هذا الاهتمام نلحظه ثائرًا على الطّرُق البالية التي يقدّم بها في غالب أنحاء الوطن، داعيًا في الوقت ذاته إلى التّجديد المستمرّ في البرامج حتّى تتماشى مع تقدّم العلوم والمعارف عالميا، كما يعدّ أبو اليقظان من المصلحين[22] الذين يرفضون أن يكون التّعليم بغرض إفساد الأخلاق والتّطبّع بطبائع الإفرنج، أو مساهمًا في الانسلاخ عن الدّين والوطن والقومية، وهذا هو الرّدّ بعينه من الشّيخ على دعاة تعليم بنات الأهالي في المكاتب الفرنسية، كما دعا إلى تجديد قطاع التّعليم على ما هو الحال عند علماء أوروبا الذين أنجزوا دراساتٍ وأبحاثَ من شأنها أن تطوّر التّعليم، منها ما دار حول هوية المدرسة ونفسية الطّفل ومواصفاتِ المدرّسين وشخصية المدراء، وتنظيم الأقسام، ودراساتٍ كثيرةً حول البرامج التي من شأنها أن تصقل نوع شخصية المستقبل.

يبدو أنّ أبا اليقظان ناقمٌ على حالة التّعليم في الجزائر عمومًا وثائرًا عليها، خاصّةً في بلدته وادي ميزاب، إذ وصف التّعليمَ العامَّ بالجزائر قائلاً: "تعليمٌ ضئيل، أسلوبٌ عقيم، كتبٌ مسمومة، مدارس غير كافية، لغتهم القومية العربية مفقودةٌ..."[23].

أمّا حالة التّعليم في وادي ميزاب فإنّه غير راضٍ عنها تماما، سواءٌ من حيث الهياكل – بناء المدارس- أو من حيث هيئة التّدريس، أو من حيث النّجاحات المحققّة في امتحاناتِ نهاية السّنة، فنجد هناك مدارس ابتدائيةً قليلةَ الفصول وكثيرةً في عدد التّلاميذ، إذ يفوق عدد تلامذتها الخمسين، وفي مرحلتين مختلفتين داخل قسمٍ واحد، وبمعلّمٍ واحد، وهذا ما يساهم حسب خبراء التّربية وعلم النّفس في انحطاط المستوى، وتراجع النّتائج لما يخلق من تشويشٍ على العملية التّعليمية، وعدم قدرة معلّمٍ واحدٍ على إدارة مستويين في الوقت نفسه، ناهيك عن أنّ البرامج المقدّمة، والتي كانت على رأسها تعليم اللّغة الفرنسية[24]، ومبادئ الحساب، والجغرافيا، وتدريس التّاريخ الفرنسي.

وكان من نتائج وضع التّعليم هذا بميزاب، أن عزف الآباء عن إرسال أبنائهم إلى المدارس، وتهرّبوا منها نظرًا لعقم مردودها، إذ قال أبو اليقظان عن بلدة العطف –كمثال- أنّ المكتب الابتدائي الموجود بها يزيد عمره عن 30 سنةً ولم يخرّج ولو واحدًا بالشّهادة الابتدائية، وتوضيحًا لهذا الموقف العازف عن المدارس الذي أعابه البعض على الميزابيين صرّح أبو اليقظان بالقول: "... نعم إنّ الميزابيين

يتهرّبون من تعليم أبنائهم في هذه المكاتب، ولكن لا كرهًا في نفس التّعليم فإنّهم أحسّوا بحاجتهم وشدّة ضرورتهم إليه، ولكن في عقم التّعليم وفساد نتيجته ... فدعوى الهروب لهم بغضًا في نفس التّعليم زائفة، وقد اتّضح من هذا اتّضاحًا لا مِريةَ فيه أنّ فساد التّعليم هو السّبب الحقيقي في ذلك" [25].

وتداركًا للوضع الكارثي للتّعليم في الجزائر عمومًا فقد توجّه بالحديث عن هذه القضية ولفت النّظر إليها لدى إدارة العلوم والمعارف التّابعة لإدارة الاحتلال الفرنسي، وكموقفٍ من الأولياء في ميزاب، ونتيجة جمود حركة التّعليم أقبل هؤلاء على إرسال أبنائهم نحو مدن الشّمال للتّمدرس[26]، وهو القرار الذي لم يحقّق رضا الإدارة الاستعمارية، أين أصدرت الولاية العامّة قرارًا بمنع الأطفال دون سن 13 سنةً من مغادرة ميزاب، في خطوةٍ توحي بأنّها مقبلةٌ على إجبارية التّعليم في الوطن الأصلي، وضرورة تقبّل ذلك على ما هو عليه من وضع، وكان قرار الولاية العامّة هذا قد حظي بسخط الأولياء هناك في المنطقة، وأقبل المصلحون في كلّ بلدةٍ من ميزاب إلى تحرير عريضةِ احتجاجٍ موجّهةٍ للحكومة انطلاقًا من غرداية إلى الأغواط، ثمّ إلى الجزائر العاصمة، محاولين شرح مضارّ القرار وخطره على شباب الأمّة، موضّحين بحثهم عن تعليمٍ صحيحٍ لأبنائهم وأساتذةٍ أكفاءَ كما في مدن الشّمال، وفي الوقت نفسه حمّل أبو اليقظان المسؤولية للحكومة، فعِوض البحث عن مشاكل التّعليم بميزاب وحلّها، لجأت إلى قرار الحرمان من الخروج للتّعلّم، إذ قال: "فمن واجب الحكومة قبل أن تسنّ هذا القانون أن تنظر في حالة التّعليم بميزاب، هل هي منتجةٌ أم عقيمة..." [27].

وكموقفٍ منه تجاه قرار الحكومة توجّه بطلبٍ إلى الوالي العامّ "بورد" Bordes لمراجعة القانون، وأوضح له أنّ الذين خرجوا من مدارس ميزاب[28] نحو المدارس الابتدائية الرّاقية في قسنطينة والجزائر كان فرارهم من تدهور حالة التّعليم ومدارسه، ودعا أيضًا الوالي العامّ إلى ترك الحال كما كان عليه نظرًا لمعرفة الأمّة بمصلحة أبنائها، ويمكن القول أنّ قرار الولاية العامّة بمنع أبناء ميزاب من الخروج نحو مدن الشّمال (التّلّ) لغرض التّمدرس هو إجبارهم على البقاء في الوطن الأمّ بغرض تفويت الفرصة عليهم في التّعليم، وبقائهم شبه جهلة، وهذا ما تهدف إليه السّياسة الفرنسية التّعليمية تجاه الأهالي.

دوره في محاربة الجهل والأميّة: بقدر ما دعا أبو اليقظان إلى اكتساب العلوم، دعا إلى محاربة الجهل والأمّية عن طريق نشر التّعليم، فلا نجد عددًا من أعداد جرائده الثّمانية إلاّ وتحدّث فيه عن الجهل والأمّية وأسبابهما، ومظاهرهما داعيًا إلى محاربتهما بشتّى الطّرق المتاحة وعلى رأسها تأسيس المدارس، والقيام بالتّعليم الصّحيح المرتكز على المقوّمات الدّينية والوطنية، فنجد أنّ أبا اليقظان يعتبر الجهلَ والأمّية متلازمتين في المجتمع الجزائري، وهذا راجعٌ بالدّرجة الأولى إلى السّياسة الاستعمارية الهادفة إلى نشر الجهل في أوساط الأمّة، لذلك حكم بأنّ الظّاهرتين –الجهل والأمية- هما علّة العلل في تأخّر المجتمع حضاريًا ولغويا ودينيا، فالأمّة الجاهلة لا تدبّر أمورها، وتبقى حائرةً أمام الطّارئ من القضايا دون التّفكير في إيجاد الحلول، وبالتّالي تصبح أمّةً منقادةً لا قائدةً لما يعتريها من عدم معرفةٍ وعدم خبرة، وهذا ما يجرّها أكثر نحو التّخلّف دون التّطلّع لمستجدّات الأمور في الحياة وتقدّم الأمم، وفي هذا قال أبو اليقظان: "... لا حياة لأيّ مشروعٍ في عهد الجهل، ولا نجاح لأيّ عملٍ مع الأمّية، فالصّديق الحقيقي للأمّة والعامل المخلص لها هو من يسعى في نشر العلم والعرفان بين أبنائها، ويعمل على إبادة جراثيم الجهل منها، والعدوّ اللّدود لها هو الذي يساعد على تفشّي داء الجهالة فيها، ويسعى في إطفاء أنوار المعارف عنها" [29].

وما يحزّ في نفس أبي اليقظان هو عدم إدراك مخاطر الجهل والأمّية في الأمّة الجزائرية عموما، وأنّها لم تُعطِ للعلم قيمتَه المستحقّةَ رغم أنّه هو سبب رقيّ المجتمعاتِ والأمم وسبب سعادتها وعزّتها، لذلك كان دائمًا داعيًا إلى اكتساب العلوم الحديثة محاربًا كلّ مظاهر الجهل والأمّية.

أجور المعلّمين في القطر الجزائري (جانفي 1929): من حيث أجور المعلّمين في القطر الجزائري، فقد أوردت جريدة المغرب أيضًا نمطًا لها لجميع الأصناف قصد المقارنة مع باقي الأجور في المدارس الأوروبية (التّعليم الفرنسي)، وهي موضّحةٌ في الجدول الآتي: (إحصائيات جانفي 1929)[30]

الصّنف / الأجرة	المعلّم المتمرّن السّنوي	المعلّم المسمّى رسميًا من القسم 06	القسم 05	القسم 04	القسم 03	القسم 02	القسم 01
الوحدة: فرنك	11.875	13.125	14.625	16.125	17.625	19.125	26.25

المصدر: جريدة المغرب، العدد: 01، ص: 2 (بتصرف).

- سلّم الأجور الجديد اعتمد بعد صدور أمرٍ بتعيين أجور المعلّمين- سلّم الأجور ساري المفعول ابتداء من: 01 جانفي 1929- الأجور نفسها لفئة المعلّمين والمعلّمات في القسم الواحد، مع أخذ الصّنف بعين الاعتبار، لأنّ هناك وفي بعض المهن لا يتساوى أجر الرّجل وهو الأعلى مع أجر المرأة ولو كان ذلك في صنفٍ وقسمٍ واحد- أعلى راتبٍ شهريٍ يحصل عليه المعلّم المسمّى رسميًا من القسم الأوّل، وأدنى راتبٍ هو للمعلّم المتمرّن.
- ترتيب الأجور بعد التّسمية الرّسمية في القسم السّادس نزولاً إلى غاية وصول القسم الأوّل وهو المعلّم الكفء، وهذا ترتيبٌ عكس اليوم، إذ ينطلق من المتمرّن إلى القسم الأوّل ثمّ صعوداً[31].

لقد شهدت أوضاع التّعليم الحرّ وضعًا صعبًا في فترة الثّلاثينيات عبر ربوع القطر الجزائري، ومنه منطقة الأغواط كمثال والتي صعب فيها سواءٌ على المعلّمين أو المتعلّمين من حيث التّعداد، ومن هياكل ووسائل أداء تعليمٍ صحيح، إذ وصل العدد في القسم الواحد ما بين 50 إلى 60 تلميذا، وهو ما ساهم في ظاهرة الاكتظاظ أين رفض قبول تلاميذ آخرين لضيق الأقسام، وهنا اقترح "جاكوب لالو" ممثّل غرداية حلاً لهذه المعاناة، إذ قال: "ولا تتيسّر لنا حلّ هاته المسألة إلاّ بإحداث جامعةٍ مدرسيةٍ كبرى، وأمّا توسيع المدرسة الحالية فإنّه لا يفي بالمقصود لأنّ من اللاّزم أيضًا إحداث مدرسةٍ خاصّةٍ بالبنات في وسط البلد[32].

دور زعماء الإصلاح فيه وسياسة الاستعمار تجاهه: إيمانًا من زعماء الحركة الإصلاحية في الأغواط بضرورة النّهوض بالتّعليم الحرّ وإنقاذه من وضعه الكارثي، عقدوا اجتماعًا برئاسة عيسى الزّهار، بغية تكوين مكتبٍ عربيٍ يجمع فضلاء المدينة، ويكون تحت إدارة الشّيخ مبارك الميلي، وعن أهداف المكتب قال أبو اليقظان: أنّه كان على نغمة الإصلاح وإحياء اللّغة العربية، والاتّحاد والبحث في سبل التّعليم والتّربية الصّحيحة، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الاجتماع حضره رئيس إدارة الأغواط "لينارد Leonard" والذي قال عنه أبو اليقظان: "ولم يكفه هذا في إبداء عواطفه الجميلة نحو المشروع حتّى أبدى اقتراحاتٍ في كيفية التّعليم وتداول مع مدير المكتب بيان الغاية منه، غير أنّه يسوؤنا ما يودّه للمكتب من خلوّه من القرآن وعدم اعتنائه إلاّ بتعليم العربية، فكيف يتّفق قيام المكتب بوظيفته التي أسّس لأجلها مع تجريده من القرآن المجيد[33].

ومن الواضح أنّ رئيس إدارة الأغواط أراد توجيه أهداف المكتب ومنه توجيه نمط التّعليم الحرّ فيه، وذلك بما يخدم مصلحة الإدارة الفرنسية، والجدير بالذّكر أنّ أبا اليقظان توجّه بالخطاب المباشر لرئيس الدّائرة منبّهًا إيّاه أنّ القرآن الكريم هو العمود الفقري للدّين وللّغة العربية، وأنّه لا يمكن الاستغناء عنه في هذا المكتب كي يتمكّن تلامذته من المحافظة على لغتهم والتّمكّن منها، وللوصول إلى أهداف التّعليم الحقيقية كان أبو اليقظان يركّز دائمًا على المواسم الدّراسية طيلة فترة صدور جرائده، إذ يُعتَبر شهر أكتوبر – وهو فترة الدّخول المدرسي- بشهر البذر والحرث، وشهر جوان –نهاية الموسم- بشهر جني المحصول، ويأتي هذا نتيجة قناعاتِه بأنّ السّنة الدّراسية النّاجحة هي السّنة التي يحصل فيها كثير العلم والمعرفة وهي السّنة المكلّلة بالنّجاحاتِ والتّتويجات.

كما ندّد أبو اليقظان بمشهد أبناء الجزائريين عند موسم الدّخول المدرسي وهم ذاهبون للسّفر قصد العمل أو التّجوال في الشّوارع وارتياد الأماكن غير اللاّئقة بالأخلاق، في وقتٍ يلاحظ فيه أبناء الأمم الرّاقية الأخرى في ذهابهم إلى المدارس وارتيادهم المكتباتِ العمومية وحملهم للكتب...الخ، وفي هذا الوصف من أبي اليقظان بؤسٌ لحالة التّعليم الأهلي أين حثّ الأولياء على الاهتمام بأبنائهم مثل الأمم الأخرى، إذ قال: "ها هو فصل الدّراسة قد أقبل، وهذا هو شهر أكتوبر على الأبواب... فهل أعددنا له الآلاف؟ وهل أعددنا له المدارس؟ وهل أعددنا له صفوف التّلاميذ؟... أتستسيغ لنا عقولنا أن نرى أولادهم يختلفون مع أولادنا في الطّرقات، أولئك يحملون محافظهم إلى المدارس وهؤلاء يحملون حقائب وأمتعة المسافرين، أولئك يحملون مجموعاتِ الكتب المدرسية وهؤلاء يحملون صناديق شحذ الأحذية على ظهورهم..."[34].

من خلال وصف الوضع عشيّة الدّخول المدرسي لسنة 1932[35] فإنّنا نخلص إلى الخلل الذي يشهده التّعليم العربي الحرّ (الأهلي) ويُرجع أبو اليقظان هذا إلى الأولياء، وعدم اهتمامهم بأبنائهم زيادةً على السّياسات المنتهجة من قبل الاحتلال الفرنسي[36]، وقد تأسّفت جريدة النّور لحالة تعليم الأهالي سواءٌ كان تعليمًا فرنسيًا أو تعليمًا عربيا، فالنّوع الأوّل يكاد يكون مقصورًا على البلديات المدنية في الشّمال فقط بعمالاتِه الثّلاث، وفي شبه احتكارٍ تامٍّ من قِبل الأوروبّيين لأبنائهم إذ يسجّل فيه ارتفاع عددهم مقابل العدد الضّئيل لأبناء الأهالي، والذين يكون حقّهم من التّعليم الفرنسي شبه منعدمٍ إلاّ القلّةَ من أبناء الموالين للإدارة الاستعمارية، وتصف الجريدة حالة الأهالي تجاه هذا النّوع من التّعليم في قولها: "هو التّعليم الفرنسي بالمكاتب الابتدائية الدّولية، فأنت ترى الأب يسارع بأنجاله كلّما حلّ الموسم الدّراسي ويطوف بهم من مكتبٍ إلى مكتب... وفي النّهاية يرجع الأب وأفلاذ كبده معه"[37].

وعادةً ما كانت حجّة مديري التّعليم الفرنسي في عدم قبول أبناء الأهالي هي عدم توفّر أماكن للدّراسة، رغم أنّ هذه المكاتب منتشرةٌ تقريبًا في كلّ شارع، وهي مفتوحةٌ للجميع سوى لأبناء القطر الجزائري، هذا بالإضافة إلى أنّ معظم الميزانية تُصرف على التّعليم الفرنسي قبل التّعليم العربي الذي ميزانيته تكاد تكون معدومة، ورغم ذلك فعدد أبناء الأهالي بالمكاتب الفرنسية يُعدّ عددًا قليلاً جدًّا مع الباقي، وزاد من سوء الوضع موقف الأساتذة بمكاتب التّعليم الفرنسي[38] الذين يعتبرون أنّ الأهالي من أحطّ الطّبقات، وبالتّالي لا يمكنهم الدّخول إليها، ولا يحقّ لهم حتّى تحصيل المعارف والثّقافة الأوروبّية وهكذا يتّضح لنا أنّ التّعليم الفرنسي يحظى باهتمامٍ كبيرٍ من حيث مكاتبه وميزانيته من قبل الإدارة الفرنسية، في حين هو شبه محرّمٍ على أبناء الجزائريين الذين تعدّهم الإدارة مواطنون من الدّرجة الثّانية، أمّا النّوع الثّاني من التّعليم العربي فمعاناته أكثر من الأوّل ولا مجال للمقارنة بين النّمطين فقد اتّسم

بالرّداءة وعدم الكفاءة، والاكتظاظ، وهو حال التّعليم الحرّ أيضًا بتراب الجنوب، إذ يوجد من "بين أربع أو خمس قرًى مكتبًا واحدا، وفي ذلك المكتب ما يزيد على المائة تلميذ والجميع من القسم الأوّل إلى السّابع يقرؤون على معلّمٍ واحد"[39].

إنّ التّعليمَ العربي بالجنوب صاحب الأغلبية السّاحقة من السّكّان الأهالي في وضع متردّ، سواءٌ من حيث هياكل التّعليم القليلة جدّا، أو من حيث عدد المؤطّرين، أين يُسجّل انعدام المعلّمين، إضافةً إلى ظروف التّمدرس التي تمتدّ إلى سبع سنواتٍ آنذاك، وبتمدرسٍ جماعيٍ لجميع السّنوات ممّا نتج عنه صعوبةٌ في التّحصيل، وبالتّالي إنتاج متعلّمٍ غير قادرٍ ربّما حتّى على الكتابة السّليمة، ولمّا طُرح الأمر على سلطات الإدارة الاستعمارية تعذّرت بضعف الميزانية الموجّهة لهذا النّوع من التّعليم رغم الضّرائب المدفوعة بانتظامٍ ولا تعود فعليًا على دافعيها، وبغية تنشيط التّعليم الأهلي الحرّ وبحكم تجربة الشّيخ أبي اليقظان في ميدان التّربية والتّعليم فإنّه دعا إلى تدريس العلوم والأناشيد والشّعر إلى جانب تحفيظ القرآن الكريم، وبهذا فهو مخالفٌ لمن نادى بتدريس القرآن الكريم فقط في المدارس العربية[40]مع ترك أو إهمال الجوانب الأدبية الأخرى، كالذي ذهب إليه الطّرابلسي عندما كتب مقالاً في جريدة النّور حول فوائد الامتحان، أين شكره أبو اليقظان على غِيرته الدّينية، وضرورة التّمسّك بتدريس القرآن، وفي الوقت نفسه أوضح قائلاً: "ولكنّنا لا نجاريه في الاقتصار عنه والاكتفاء به عن حفظ القطع الأدبية الرّائعة النّثرية والنّظمية"[41].

من هنا أمكن القول أنّ أبا اليقظان قد خدم التّعليمَ العربيَّ الحرّ باقتراحاته المقدّمة، سواءٌ من حيث الأسلوب، أو الطّريقة والمنهج المتّبع الذي دعا إلى إعادة النّظر فيه في المدارس العربية الحرّة، وهي الفكرة نفسها التي كانت تراود المعلّمين الأحرار الذين سعوا إلى عقد مؤتمرٍ بغرض التّدارس حول مسألة توحيد مناهج التّعليم الحرّ، رغم المضايقات التي يتعرّض لها من قِبل إدارة الاحتلال، ونزولاً عند رغبة هؤلاء وجّه الشّيخ عبد الحميد بن باديس دعوةً إليهم عبر كافّة القطر الجزائري إلى عقد مؤتمرٍ عامٍ بنادي التّرقي بالجزائر العاصمة يومي: 22 و23 سبتمبر 1937 تحت إشراف جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، ولكي يكون المؤتمر مثمرًا تمّ تحديد تسعة مباحث تدور حولها أشغال المؤتمرين بالشّرح والتّحليل، وقد جاءت تلك المباحث على شكل أسئلة، وهي كما أوردتها جريدة الأمّة على النّحو الآتي:

- ما هي وسائل توحيد التّعليم؟- ما هو أسلوب التّعليم؟- ما هو أسلوب تربية النّاشئة؟- خلاصة تجاربكم في التّربية والتّعليم- ما هي الكتب التي تختارونها للتّدريس؟ أمصريةٌ هي أم جزائرية؟- ما رأيكم في تعليم البنت المسلمة؟- ما رأيكم في التّعليم المسجدي؟- ما هي وسيلة إعادة المرأة المسلّمة لمجدها الإسلامي السّالف؟- تقارير عن إقبال الأمّة على التّعليم العربي الحرّ[42].

من خلال جلسات المناقشة في المؤتمر[43] نخلص إلى أنّه يدور حول توحيد مناهج التّعليم الحرّ من حيث الوسيلة والأسلوب والتّجربة، على أن تدرج أنفع المؤلّفات التي يتوجّب تدريسها سواءٌ كان ذلك على الطّريقة الشّرقية (المصرية) أو بالاعتماد على المؤلّفات الوطنية (الجزائرية)، هذا إلى جانب مسألة تعليم بنات المسلمين وطريقة الحفاظ على المرأة المسلمة، والوقوف على مدى قابلية الأمّة الجزائرية للتّعليم الحرّ بما في ذلك التّعليم المسجدي، ومن الملاحظ على هذه النّقاط أنّها تصبّ بمجملها في خانة اللّغة العربية والدّين الإسلامي والوطنية الجزائرية وهي ثلاثية الإصلاح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد افتتح الشّيخ عبد الحميد بن باديس أشغال المؤتمر منوّهًا في كلمته التي ألقاها بدور المعلّم والعلم والعلماء في النّهوض بالأمم، ثمّ سارت أشغال المؤتمر وفق ما خُطّط لها وسُرِدت التّقارير كافّة ، ثمّ

تمّ تشكيل لجنة لتلخيص التّقارير في تقرير واحد، وبعدها عقد اجتماع عام في اليوم الموالي لمناقشة التّقرير النّهائي، إذ تمّ تكليف كل من فرحات الدّراجي وباعزيز بالكتابة.

نتيجة هذه المساعي الحثيثة للنهوض بالتّعليم العربي الحر تحركت الإدارة الفرنسية، وكانت لها مواقفٌ إضافية إزاء المسألة، وهو ما عبّرت عنه جريدة الأمّة في قولها: "ولئن كانت نهضتنا خيرية بعيدة عن التّعصب الدّيني الممقوت، وكان مبدأها سامياً، وغايتها شريفة، فإنّها لم ترض بعض رجال الإدارة المحلية، ولن تحرز رضا الكثير منهم، فناصبوها العداء وقعدوا بها كل مرصد... وأخيراً أوصدوا المدارس[44] وشتّتوا أبناءنا إلى حيث ينتظرهم البؤس والشّقاء في عهد الحكومة الشّعبية، وعصر المدينة والنّور، وأوقفوا المعلمين مواقف التهم بحجة مخالفة القانون والتعليم بغير رخصة"[45].

أركانه ومواصفاته الصّحيحة: عن مواصفات التّعليم الصّحيح قال أبو اليقظان أنّه هو الذي يوصل إلى الفهم والإفهام بطرق قصيرة، وأسلوبٍ سهلٍ، فيستطيع التّلميذ استيعاب ما وجّه إليه، وينير دربه، ويشبِه التّعليم بعملية الحرث والبذر والأرض الخصبة، فإذا توفرت هذه الشّروط كان الإنتاج وفيراً، فكذلك التّعليم "فإنْ كان ما يعلم نفعاً مفيداً، وقد أجري على الأساليب النّظامية، وكان دماغ المتعلم منبتاً وفهمه خصبًا... فإنه لا شك أن يثمر ثماراً من العلم ناضجة، وهذا هو التعليم الصحيح المنتج"[46].

ومن العوامل المؤثرة في التّعليم الصّحيح – حسب أبو اليقظان- هو عقم الأسلوب والطّريقة التي يقدم بها، أي ما يعرف اليوم بمصطلح البرامج والمناهج، وطرائق التّدريس، ويضاف إليها ما يتعلق بالقدرات العقلية للتلميذ في حدّ ذاته، وتأخره في الفهم أو تجاوزه سن التّعليم، أو كان من يقوم على العملية التّعليمية –المعلم- غير الكفء لأداء مهنته، فكلّ هذه العوامل تؤدي إلى تراجع التّعليم، وفي وقت كان التّعليم مستهدفًا من قبل الإدارة الفرنسية التي سعت إلى محاربته إذا كان عربيًا حراً، وتضييق الخناق عليه، وغلق مدارسه العربية وبالمقابل العمل على نشر التعليم الفرنسي خاصةً في مدارس الشّمال، وقد حدّد أبو اليقظان[47] أركان التّعليم الصّحيح في أربعة وهي:

الرّكن الأول: وهو يتعلق بالتّلميذ من حيث الاستعداد للتّعلم، والذكاء، والقدرة على الإنجاز، وقوة العزيمة، والرّغبة في التّحصيل (الطلب)، والوقت الكافي دون الانشغال بأمور غير التّعليم.

الرّكن الثّاني: وهو يتعلق بالمعلم من حيث الكفاءة والغزارة العلمية، والتّحكم في مادة تدريسه، واتّصافه بالكمال الخلقي والعقلي، فلا ينبغي لغير العاقل أن يشرف على عملية التّعليم.

الرّكن الثّالث: وهو نوعُ المادة العلمية المفيدة والمقدّمة للتلميذ "ويعتبر فيها أغزرها فائدة وأعظمها عائدة وأهمها للتلميذ وأمسها بحاجته وألصقها بحياته وأقربها لنيل سعادته في دنياه وآخرته"[48].

والرّكن الثالث هو ما يعرف اليوم بالمقررات المدرسية، فعلى أساسها يحدد نوع الشّخص المراد بناؤه للمستقبل، وعلى أساسها تبنى احتياجات الوطن بتوفير جميع أنواع المهن التي بها يبنى الاقتصاد ويتطور المجتمع، فكأنّ أبي اليقظان كان يكتب لهذا العصر الحالي بالذات، وليس لفترة العشرينيات وهذا بحكم خبرته كونه مصلحُ ومربي.

الرّكن الرّابع: وهو الطّريقة المتّبعة في إيصال المادة العلمية للتّلميذ، وهنا أكّد الشّيخ بأنْ تكون سهلةً قصيرةً مختصرة وواضحة، وخالية من العقبات والصّعوبات[49].

وبحكم الواقع آنذاك، فقد حكم أبو اليقظان على الأمّة أنّها بعيدة عن هذه الأركان التي أقرّتها كبريات المدارس المتخصّصة في علوم التربية والتّعليم، إذ قال: "وأين نحن والمسلمين من هذه الحياة العلمية

الواسعة النّطاق البعيدة المدى الكاملة الجهاز التي من أول نظرة في حالة تعليمنا الأسيفة تراها فاقدة لكافة الأركان الآنفة والشّرائط المتقدّمة "[50].

وكانت نتيجة بعد الأمّة عن الأركان السّابقة الذّكر إذ أصبح التّلميذ لا يتمتّع بالاستعداد التّام، وينتابه الكسل والفتور، وحرم من الوقت الكافي نتيجة الانشغال بغير التّعليم، سواءُ مع والديه أو مع المحيط به، كما أنّه أصبح عديم الكفاءة اللاّزمة لأنّ ما تلقاه لم يكن بالطّريقة الصّحيحة، ولم يرتكز على قاعدة نظامية "لا ترتيب فيه للمسائل ولا تلخيص للمباحث، ولا تحليل للمشاكل، ولا تمارين كتابية أو شفاهية ... فكيف من كان تعلمه على هذا النّمط ينتج تعليمًا صحيحًا، وتهذيبًا عاليًا، وتفكيرًا سديدًا صائبًا"[51].

ومن العيوب الأخرى التي ترتّبت عن الابتعاد عن أركان التّعليم في المجتمع الجزائري عدم الاعتناء بانتقاء المادة العلميّة المقدّمة، سواء من حيث اختيار سِنّه أو حاجته الدّينية والوطنية، فقد ساهم هذا الجانب في زرع روح الملل، والجفاء في نفسية التّلميذ ممّا يشجعه على الانصراف إلى غير التّعليم، وحلّ هذه المشكلات حسب ما يراه أبو اليقظان هو إسناد التلاميذ إلى معلم كفءٍ ماهرٍ ذي خبرةٍ عاليةٍ، وهنا حتمًا أنّ روح التّعليم سوف تعود إلى التّلميذ، ويتدارك نقائصه وترجع إليه مواهبه، كما أنّ عقم الطّريقة[52]الموصلة للتّلميذ معارفه من حيث أسلوبها أو عدم تحديثها يصعب من إيجاد تعليم صحيح، فلا حوار فيها ولا اهتمام، ولا تصميم في تقديم الدّرس، وكل هذه المطبّات كانت محلّ سخطٍ عند أبي اليقظان لذلك نادى بضرورة معالجتها قائلا: "أجل هذه الاختلالات في أساليب التّعليم رفعنا ونرفع صوتًا عاليًا بوجوب إصلاحها والجري على نظامه المنتج، وقد رأينا الفرق بين الحالتين عظيماً ورجاؤنا منه سبحانه أن يفتح بصائر الأمّة إلى ما فيه عزّها وسعادتها"[53]كما شجّع أبو اليقظان التّعليم باللّغة القومية العربية لما فيه من تناغم أثناء العملية التّعليمية للمتعلم، مستشهداً في ذلك بأوربا وما حققته عند اعتمادها على لغاتها الأصلية القومية في بناء حضارتها[54].

ثانيا- التّعليم الفرنسي

تأتي المواقف الفرنسية من التّعليم العربي الحر بغرض عرقلته وتثبيطه، وبالمقابل شجعت التّعليم الفرنسي الذي هو محل سخط تام عند أبي اليقظان عبر كافة القطر الجزائري، ومنه بلدة العطف بغرداية التي منع أبناؤها من السّفر خارجها قصد التعلم، وهي البلدة التي اختل فيها حتى نظام التّعليم الفرنسي في حدّ ذاته، أين تماطل قائد المنطقة وعماله في انطلاق المواسم الدّراسية، و تصل مُدّة التّماطل أحياناً إلى شهر ونصف مقارنة مع بداية الموسم في الشّمال، وهذا ما جعل أبو اليقظان يحتج على هذا الإهمال داعيًا إلى تنظيم التّعليم في العطف أو السّماح لأبنائه بالهجرة قصد اكتسابه[55].

وفي الوقت ذاته أعاب على الأولياء الذين لا يحركون ساكنًا تجاه قضية تخص أبنائهم ، والظّاهر أنّ اختلال التّعليم الفرنسي بوادي ميزاب عمومًا كان من أكبر القضايا التي تؤرق الأهالي هناك لولا بعض مكاتب التّعليم العربي الحر، وحتى وإنْ انطلق موسم التّعليم الفرنسي متأخرًا فإنّ مردوده لا يكاد يرى، إذ يمكن ملاحظة ذلك الضّعف في المستوى الذي يظهر عليه التّلاميذ في نهاية السّنة الدّراسية، وهكذا وقع السّكان بين الحرمان والمنع من التّعليم العربي الحر، وعدم الاهتمام بالتّعليم الفرنسي في مناطق الجنوب، لأنّ غالبية سكانها من الجزائريين على العكس تمامًا منه في منطقة الشّمال، أين حظي التّعليم الفرنسي ببالغ الأهمية نظراً لسواد الأوربيين فيه، وهنا رفع الميزابيون على غرار باقي سكان الجزائر برقيات الاحتجاج على اختلال حالة التّعليم بنوعيه إلى السّلطات العليا[56].

إنّ المتتبّع لاهتمامات أبي اليقظان بقضايا التّعليم يجده لا يقتصر على المدرسة واكتساب العلوم الدّينية والدّنيوية فقط، وإنّما تتعدّى فكرته إلى مناصرة تحقيق تعليم مهني – صناعي- قصد اكتساب العلوم والمهن معًا، وهي فكرةٌ طرحها أيضًا "سيبلمان Spielman"[57] وناصرها أبو اليقظان، وترجمها الفرقد من خلال مقال نُشر في جريدة "الغد" الفرنسية، أين اعتبر أنّ تعليم الأهالي في الجزائر وفي شمال إفريقيا عمومًا من شأنه أن يحلّ جميع المشكلات وخصوصًا إذا كان مقرونًا بالتّعليم المدرسي والصّناعي –التّعليم المزدوج- ومن صعوبات إيجاد هذا التّعليم كانت حالة المجتمع البائسة المتقهقرة والمتراجعة، وحسب أبي اليقظان فإنّ عامل تراجع التّعليم بصفة عامة راجعٌ إلى سياسة الاحتلال الفرنسي طيلة قرن من الزّمن، وتضاف إلى هذا العامل ضعف الهياكل ، وقلّة المدارس وضعف برامجها وتدهور حالة المعلمين، وربّما يكون هذا الوضع قد أثّر حتى على التّعليم الصّناعي، ولإثبات الحجة على الإدارة الفرنسية يورد أبو اليقظان مقال السّيد "سبيلمان Spielman" إذ قال فيه: "... ومع هذا كله فإنّ الأهالي مازالوا يؤدون جمع الضّرائب، وحتى ضريبة الدّم بالاستواء مع الفرنسيين فهلا أحرزوا على مثال تلك المساواة حتى في الحقوق ... عارٌ علينا معشر – المدّعين بالمتمدّنين- أن يوجد مثل هذا الحيف في مستعمراتنا في عهد الجمهورية وفي أواسط القرن العشرين ..."[58].

ثالثا- التعليم المهني (الصناعي)

تطرق أبو اليقظان إلى مسألة التّعليم الصّناعي – المهني- بعد أن أحسّ بضرورة وجودها للقطر الجزائري، فهي تحتضن من لم يسعفه الحظ في التّعليم الحر من أبناء الأهالي، ومن ناحية توفير اليد العاملة للجزائر ذات النّوعية ،ولقد ظهرت المدارس الصّناعية في الجزائر وهي المدارس التي تكون عن طريق التّعليم الفني في ظل وجود عدد كبير من المستودعات الكبرى، ومعامل المواد الكيماوية، ومعامل التّبغ والفخار، ومعاصر الزّيتون، وهي التي كانت توظف سنة 1926 ما يقارب ألف عامل منهم 81 ألف جزائري والباقي من الأوربيين ، وبناءً على هذه الوضعية الصّناعية استوجب الأمر تأطير اليد العاملة وتأهيلها، لذلك وجدت المدارس الصّناعية التي من بينها مدرسة الحرّاش (كلية صناعية) والتي ضمّت عند افتتاحها 63 منخرطًا موزعين على القسم التّجهيزي، وقسمين للتّرشيح، وكانت تخرج رؤساء المعامل والعرفاء ومديري الأشغال العمومية، كما أنّها جهزت بوسائل تضاهي تلك التي جهزت بها المدارس الكبرى لترقية تخريج رؤساء صناعيين ذوي خبرة.

أمّا في دلّس فقد كانت مدرسة "التّمرين الصّناعي" تضم 120 منخرطًا، بها قسم مخصّص للأهالي الذين لم يستطيعوا مزاولة الدّروس النّظرية، وقد سعت هذه المدرسة إلى تخريج الأهالي المتمرنين، وفي المقابل فقد كانت هناك مدارس للتّمرين الصّناعي موجودة في الجزائر، وقسنطينة، ووهران فمدرسة الجزائر فتحت منذ شهر أكتوبر 1927، بها ما يقارب 90 تلميذاً، وساهمت مستقبلاً بحوالي 120 تلميذًا[59] أمّا "مدرسة قسنطينة فشرعت في أداء مهمتها منذ أكتوبر 1925 وقد انخرط في سلكها تسعون تلميذاً موزعين على قسمين، قسم الخشب وقسم المعادن"[60].

ومن شأن هذه المدارس أن تخرج مهنيين في مختلف النّشاطات الصّناعية مثل الخراطة والكهرباء، والنّجارة، والميكانيك، والنّسيج والفخار... الخ، كما ظهرت أيضًا مهنٌ خاصّة بالمرأة مثل الخياطة والطّرز والحياكة، ونظراً للطلب الذي تقدم به النّائب الأهلي ابن التّهامي، وإبراهيم الأخضر، وسباوي، فقد دعا مجلس الجزائر العمومي يوم 07 ماي 1928 إلى إنشاء المدارس الصّناعية، واستخدام المسلمين

فيها وذلك عن طريق تأسيسها في عين بسّام، وصور الغزلان وسيدي عيسى وباليصطرو (الأخضرية حالياً)[61].

وبقدر ما نادى أبو اليقظان بضرورة تحسين أحوال التّعليم الأهلي في جميع أطواره، بقدر ما ندّد بالوضعية الكارثية التي آل إليها التّعليم الفرنسي في أراضي الجنوب ،على الخصوص فقد نادى أيضاً بضرورة التّعليم الصّناعي الذي يكسب الأهالي خبرات في حرفٍ معينةٍ تشيّد من خلالها المشاريع والمؤسسات لخدمة الاقتصاد الوطني القابع تحت إدارة الاحتلال ، وقد استنكر الشّيخ أيضاً وضع التّعليم الصّناعي، وآليات عمل المدارس الصّناعية وطرق سيرها، وذلك أنّ معظم تلامذتها إمّا من العنصر الأوربي أو العنصر اليهودي، منطلقًا في ذلك من وضع المدرسة الصّناعية[62] بغرداية التي أصبحت تظم بين جدرانها التّلاميذ من أبناء اليهود فقط، وهي مدرسة شبه ممنوعة على أبناء الأهالي ،وكموقف من أبي اليقظان تجاه المدرسة الصّناعية بغرداية تساءل قائلاً: "أين رغبة الأمة في العلم هاهنا، وهذه مدرستها الصّناعية لا يوجد فيها ولا مسلم واحد، وإنّما تلامذتها كلّهم من اليهود مع أنّ نفقاتها تخرج من جيوب المسلمين"[63].

الخاتمة :

بصفة عامّة فقد تطرّق الشّيخ أبو اليقظان إلى قضية التّعليم العربي الحُر، والتّعليم الفرنسي وكذلك التّعليم الصّناعي (المهني) ، فمن ناحية التّعليم العربي الحُر فقد فصّل فيه تفصيلاً طويلاً على أساس اعتباره هو الرّكيزة الأساسية التي تقوم عليها الهوية الوطنية ،وهو المعوّل عليه في الحفاظ على الثّقافة الوطنية التي تعرضت كثيرًا لسياسة الطّمس والتّشويه من قبل إدارة الاحتلال الفرنسي ، حيث تطرق أبو اليقظان إلى الواقع المأساوي الذي يعيشه التّعليم العربي في ظل الإدارة الفرنسية الهادفة إلى تعويضه بتعليم مسيحي فرنسي غربي، وربّما تطرّق أبو اليقظان إلى هذه الحالة وعرضها بهدف اطلاع الجزائريين على الوضعية الحقيقية ومنه إدراك قيمة الخطر المحدق بهم .

ومن جهة ثانية فقد تطرق أبو اليقظان إلى الأسس الصحيحة التي يقوم عليها التعليم العربي الحر وهذا بهدف إيجاد قاعدة تعليمية صحيحة من شأنها أن تبني ثقافة وطنية صلبة في مواجهة الثقافات الغربية المراد تثبيتها في الجزائر وحاله يقول أنه لا يمكن أن يتحقق العليم المناسب من دون الأخذ بهذه القواعد.

كما اقترح أبو اليقظان المقررات الدّراسية المناسبة للجزائريين بدلا عن تلك التي تفرض من قبل الفرنسيين، هنا نبّه إلى ضرورة تدريس بعض العلوم مثل التّاريخ والتّفسير، الجغرافيا، اللّغات الحيّة... الخ، وفي نفس الوقت نبّه إلى ضرورة التّصدي للجهل المنتشر في أوساط الجزائريين عن طريق العمل على نشر التّعليم الصّحيح مركزًا في كلّ هذا على دور زعماء الحركة الإصلاحية في نشر التّعليم العربي الحر مذكرًا إيّاهم بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم في هذه المسألة ومعرجًا في ذات الوقت على موقف إدارة الاحتلال الفرنسي تجاه هذه الحركية التّعليمية .

وفي السّياق نفسه تحدّث أبو اليقظان عن التّعليم الفرنسي الموجّه للجزائريين معيبًا طريقة تلقينه ومحتواه البعيد عن ما يطلبه الجزائريون وفاضحًا الأغراض منه. وهذا ما ساهم في تسر ، وعليه تحدّث أبو اليقظان ولأوّل مرّة عن نوعٍ جديدٍ من التّعليم وهو التّعليم الصّناعي أو التّعليم المهني قصد اكتساب خبرات في حرفٍ جديدةٍ بدلاً من العمل في مزارع المعمرين وبنظام السّخرية.

وممّا سبق نخلص إلى أنّ النّشاط التّعليمي الإصلاحي قد ساهم مساهمةً فعّالةً في الحفاظ على الثّقافة الوطنية من الاندثار أمام الهجمات الفرنسية الغربية الرّامية إلى تدمير ومحوِ الكيان الجزائري. وهذا ما ننعم به نحن اليوم في مدارسنا وهياكلنا التّعليمية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر غير المطبوعة (صحف أبي اليقظان من سنة 1926 إلى سنة 1938)

1- جريدة وادي ميزاب، العدد 02.
2- جريدة وادي ميزاب، العدد09، 26 نوفمبر 1926.
3- جريدة وادي ميزاب، العدد 11.
4- جريدة وادي ميزاب، العدد 23.
5- جريدة وادي ميزاب، العدد 26.
6- جريدة وادي ميزاب، العدد 56.
7- جريدة وادي ميزاب، العدد 63.
8- جريدة وادي ميزاب، العدد 91.
9- جريدة وادي ميزاب، العدد 83، 18 ماي 1923.
10- وادي ميزاب، العدد 92.
11- جريدة وادي ميزاب، العدد 95.
12- جريدة وادي ميزاب، العدد 103.
13- جريدة وادي ميزاب، العدد 105.
14- جريدة وادي ميزاب، العدد 111.
15- جريدة وادي ميزاب، العدد 24.
16- جريدة وادي ميزاب، العدد 06.
17- جريدة وادي ميزاب، العدد 62.
18- جريدة وادي ميزاب، العدد 64.
19- جريدة وادي ميزاب، العدد 27.
20- جريدة النّور، العدد 22، 23 فيفري 1932.
21- جريدة النّور، العدد 50.
22- جريدة النّور، العدد 52.
23- جريدة المغرب، العدد 1، 26 ماي 1930.
24- جريدة الأمّة، العدد 138.
25- جريدة الأمّة، العدد 152.
26- جريدة الأمّة، العدد09.
27- جريدة الأمّة، العدد 76، 26 ماي 1936.

ثانيا: المصادر والمراجع المطبوعة :

28- رابح تركي، التّعليم القومي والشّخصية الجزائرية، الشّركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989.
29- بشير بلاح، موقف الحركة الإصلاحية من الثقافة الفرنسية (1925-1940)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008.
30- الطيب العلوي، محمد بن العابد الجلالي المربي ورائد الأنشودة المدرسية للأطفال، مجلة الثقافة، العدد 107-108، مارس، أفريل 1995.
31- كريمة بوبكر، دور النخبة المثقفة الجزائرية أثناء الاستعمار وبعده في الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005.
32- الطاهر الزرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاحتلال، مؤسسة موفم للنشر، الجزائر، 1993.

33- رابح دبي، السّياسة التّعليمية الفرنسية في الجزائر ودور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الرّد عليها (1830-1962)، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر2، 2010.
34- عبد القادر حلوش، السّياسة التّعليمية الفرنسية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 1999.
35- إبراهيم بيوض، حديث الشّيخ الإمام، إعداد وتنسيق إبراهيم سعيد كعباش، الحلقة الأولى، جمعية النهضة، غرداية، د.ط، 1992.

الهوامش:

[1]- عبد الرحمان، حالتنا التّعليمية، وادي ميزاب، العدد 2 السّابق، ص1.
[2]- المصدر نفسه.
[3]- أبو اليقظان، كيف الوصول إلى العلم النافع، وادي ميزاب، العدد 9، 26 نوفمبر 1926، ص1.
[4]- المصدر نفسه.
[5]- يشمل التّعليم العربي الحر فئة الإناث كما يشمل فئة الذكور، فقد حظيت المرأة باهتمام كبير لدى المصلحين، أين دعوا إلى ضرورة تعليمها. للمزيد ينظر: رابح تركي، التّعليم القومي والشّخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989، ص133.
[6]- أبو اليقظان، كيف الوصول إلى العلم النّافع، وادي ميزاب، العدد 9، ص2.
[7]- أبو اليقظان، ما هي العلوم التي نحتاجها، وادي ميزاب، العدد11، ص1.
[8]- المصدر نفسه.
[9]- المصدر نفسه.
[10]- المصدر نفسه.
[11]- الطرابلسي، المثبطون والعلوم العصرية، وادي ميزاب، العدد 23، ص3.
[12]- أبو يحي، كلمة وجيزة في الإصلاح، وادي ميزاب، العدد 26، ص2.
[13]- أبو اليقظان، التّعليم، وادي ميزاب، العدد 56، ص2.
[14]- خميس الزهار، أسباب رقي الأمم وانحطاطها، وادي ميزاب، العدد 63، ص3.
[15]- المصدر نفسه.
[16]- نشرت "لاديبش ألجيريان" مداولات المجلس في عدد رقم 10، وفي العدد رقم 12 نشرت بقية المحضر الذي تضمن اقتراحات النّواب المسلمين مثل تسهيل هجرة سكان القبائل نحو فرنسا كسبًا للرزق دون الصّرامة في قانون الخدمة العسكرية، إلى جانب الخوض في مرتبات القواد بالحكومة الفرنسية ومرتبات الفرسان بالمداشر المختلطة.
[17]- اهتمت جريدة وادي ميزاب كثيراً بقضايا التّعليم إلى درجة الإشادة بأسماء النّاجحين في الامتحانات مثل: تهنئة التّلميذ أحمد بن صالح بن محمد بن زكري على نيله الشّهادة الابتدائية في فرع المدرسة الصّادقية، والتّلميذين التّجاني إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، وأحمد بن موسى بن أحمد على نجاحهما في شهادة الدبلوم من المدرسة الخلدونية. ينظر: وادي ميزاب، العدد 91، ص3.
[18]- رشدي، صدى الصّحافة، وادي ميزاب، العدد 83 ، 18 ماي 1923، ص2.
[19]- أبو اليقظان، خطاب الوالي العام، وادي ميزاب، العدد 92، ص2.
[20]- نفسه، العدد 95، ص1.
[21]- عن مواقف الحركة الإصلاحية من سياسة التّفرنس، ونشر الثقافة الفرنسية (التعليم الفرنسي)، ينظر: بشير بلاح، موقف الحركة الإصلاحية من الثقافة الفرنسية (1925-1940)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008.
[22]- اهتم المصلحون بكتابة الأناشيد الإسلامية بعد شيوع الأناشيد الفرنسية، وصدرت بعض المطبوعات منها: كتاب محمد بن العابد الجلالي الذي يحمل عنوان: "الأناشيد المدرسية لأبناء وبنات المدارس الجزائرية" الذي طبع ووزع سنة 1939. للمزيد ينظر: الطيب العلوي، محمد بن العابد الجلالي المربي ورائد الأنشودة المدرسية للأطفال، مجلة الثقافة، العدد 107-108، مارس، أفريل، 1995.
[23]- أبو اليقظان، اختلال التّعليم بميزاب، وادي ميزاب، العدد 103، ص3.

[24]- عن نتائج السّياسة التّعليمية الفرنسية في الجزائر وانعكاساتها على المجتمع، ينظر: كريمة بوبكر، دور النّخبة المثقّفة الجزائرية أثناء الاستعمار وبعده في الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005، ص45.

[25]- أبو اليقظان، اختلال التّعليم بميزاب، وادي ميزاب، العدد 103.

[26]- كان بعض الآباء قد هرّبوا أبناءهم نحو مدن الشّمال للتّحصيل الدراسي.

[27]- أبو اليقظان، أنباء وادي ميزاب، وادي ميزاب، العدد 105، ص2.

[28]- موضوع نقل الآباء لأبنائهم نحو مدن الشّمال لقي ترحيبًا من قبل الأولياء، في حين لقي معارضة كبيرة من قبل بعضهم الآخر، واعتبروه ترك الفرصة لشيوع المدارس النّصرانية، وهنا وقف أبو اليقظان ضدّ هؤلاء المعارضين، وأعاب عليهم موقفهم واصفًا إياهم بمواصفات غير حميدة. لمعرفة وجهة نظر أبو اليقظان حول الموضوع ينظر: وادي ميزاب، العدد 111، ص1.

[29]- أبو اليقظان، الأميّة في الأمم شلل، وادي ميزاب، العدد 105، ص1.

[30]- أبو اليقظان، أجور المعلمين في القطر الجزائري، المغرب، العدد 1، 26 ماي 1930، ص 2.

[31]- للمقارنة حول التّعليم في الجزائر قبل وبعد الاحتلال الفرنسي ينظر: الطاهر الزرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاحتلال، مؤسسة موفم للنشر، الجزائر، 1993.

[32]- أبو اليقظان، الوالي العام في الأغواط، النور، العدد 22، 23 فيفري 1932، ص2.

[33]- أبو اليقظان، هبوب الأمّة الجزائرية لتأسيس المشاريع الخيرية، وادي ميزاب، العدد 24، ص1.

[34]- أبو اليقظان، فصل العقول، النور، العدد 50، ص1.

[35]- صادفت هذه الفترة دخول جريدة النور في مرحلتها الثانية، أين عانت الكثير من الحكومة الفرنسية في مرحلتها الأولى، وهنا وجه أبو اليقظان دعوة إلى الحكومة قائلا: "أما رجاؤنا من الحكومة فهو شيء تافه ألاّ وهو رفع الأحكام الاستثنائية عن الصّحافة العربية وتطبيق أحكام زميلتها الفرنسية عليها، هذا أولاً، وثانياً إغلاق آذانها عن سماع الدّعايات ضد الصحافة العربية وإقفال أبوابها في وجه الوشاة بها والتدقيق التام في ترجمة فصولها حتى لا يقع سوء تفاهم بين الحاكم والمحكوم". ينظر: افتتاحية النّور، المرحلة الثانية، العدد 50 نفسه.

[36]- للمزيد حول السياسة التّعليمية الفرنسية ينظر: رابح دبي، السّياسة التّعليمية الفرنسية في الجزائر ودور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الرد عليها (1830-1962)، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر2، 2010.

[37]- غريب عبد الرحمان، الناشئة الأهلية وحظها في كل موسم دراسي، النور، العدد 52، ص2.

[38]- حول التعليم لفرنسي وسياسة فرنسا فيه ينظر: عبد القادر حلوش، السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 1999.

[39]- غريب عبد الرحمان، "الناشئة الأهلية وحظها في كل موسم دراسي، النور، العدد 52، ص2.

[40]- من المدارس التي برعت في التعليم العربي كانت مدرسة الإخاء ببسكرة التي يديرها السّيد الحاج الحفناوي، وخليفته الحاج الشّاوي وأمين مالها السّيد عيسى بن عمارة الخبزي، وهي التي شهدت إجراء امتحان لتلامذتها يوم 02 أكتوبر1932 وكانوا بارعين في الإجابة حول أمور القرآن، والتّوحيد، والفقه، والسّيرة، والجغرافيا... الخ، أمام لجنة مثلت هيئة علمية للامتحان منهم: الشّيخ طاهر بن دالي، الشّيخ العربي المختار كاتب بن قانة والشّيخ علي بن عمارة، وعمر البسكري العقبي والشّيخ الحاج مسعود إمام مسجد التيجانية.

[41]- الطرابلسي، فوائد الامتحان، النور، العدد 54، السنة 2، 25 أكتوبر1932، ص3.

[42]- أبو اليقظان، مؤتمر المعلمين الأحرار، الأمة، العدد 138، ص1.

[43]- كان انعقاد مؤتمر المعلمين الأحرار قبيل عقد الاجتماع العام لجمعية العلماء والذي عقد بعده مباشرة يوم 24 سبتمبر1937، إذ اغتنم الشّيخ ابن باديس الفرصة لتدارس مسألتين في وقت واحد.

[44]- منها إيقاف معلمي مدرسة القلعة العباسية، وإجراء محاكمات بتهمة فتح مكتب عربي حر دون رخصة للتّعليم في محكمة الاستئناف ببجاية شهر جانفي 1938

[45]- بلقاسم بن أوراق، نحن والحكومة المحلية في نهضتنا الحديثة، الأمة، العدد 152، ص2.

[46]- أبو اليقظان، العلم والتّعليم الصّحيحان، وادي ميزاب، العدد 6، ص2.

[47]- كان أبو اليقظان دائم الرّبط بين التّربية والعلم، إذ يراهما أساس بناء الحضارة واستمرارها.
[48]- أبو اليقظان، العلم والتّعليم الصّحيحان، وادي ميزاب، العدد 06.
[49]- نفسه.
[50]- المصدر نفسه.
[51]- نفسه.
[52]- لمعرفة وجهة نظر الشّيخ إبراهيم بيوض لمدرسي التّربية ينظر: إبراهيم بيوض، حديث الشّيخ الإمام، إعداد وتنسيق إبراهيم سعيد كعباش، الحلقة الأولى، جمعية النهضة، غرداية، د.ط، 1992، ص31.
[53]- أبو اليقظان، العلم والتّعليم الصّحيحان، وادي ميزاب، العدد 6، ص2.
[54]- أبو اليقظان، التّعليم باللّغة القومية، وادي ميزاب، العدد 27 ، ص2.
[55]- منعت إدارة الاحتلال الفرنسي سكان وادي ميزاب - العطف- من تسجيل أبنائهم في مكاتب التعليم المنتظم بالشمال (التل) ومنعتهم أيضاً من الخروج والسفر خارج المنطقة إلا بعد مرور سبع سنوات على التلميذ في أحد مكاتب التعليم الفرنسي، ومن خالف هذا القانون من الأولياء يعاقب بغرامة مالية مقابل تهاونه في تطبيق قانون التعليم، ونحن نرى أن فترة سبع سنوات قصدها تفويت سن التمدرس على الأبناء إذ لا يقبل التسجيل لأن السن قد بلغ 14 سنة.
[56]- البكري، اختلال التعليم الفرنسي ببلدة العطف، الأمة، العدد 9، ص1.
[57]- يعتبره أبو اليقظان رجل فرنسي مشهور بالقطر الجزائري آنذاك، ومن المدافعين عن حقوق الأهالي وكان صديقاً للمسلمين، أسّس جريدة من أجل خدمة الأهالي تحمل عنوان "حبل الاتصال"، ثم توقفت عن الصدور بسبب الاحتجاج على مواقفها، واستبداد الإدارة الفرنسية ضد كل الصحف الحرة، ثم أسس جريدة أخرى خلفاً للأولى تحت اسم "المنير الأهلي الجزائري" لإكمال مشاريعه وأفكاره.
[58]- الفرقد، تعليم أهالي الجزائر، وادي ميزاب، العدد 62 ، ص2.
[59]- كان مجموع ما تخرج من مدارس التمرين الصناعي سنوياً 360 تلميذاً بالجزائر، وفي سنة 1926 ارتفع العدد إلى 821 تلميذاً في مدرسة الجزائر العاصمة وإلى 299 في وهران و745 تلميذاً بمدرسة قسنطينة "موزعين على الشّركات والنقابات في الجزائر ووهران وبريقو وسيدي بلعباس وقسنطينة وعنابة". ينظر: وادي ميزاب، العدد 64 بتصرف.
[60]- عبد الرحمان، التّعليم الفني بالقطر الجزائري، وادي ميزاب، العدد 64، ص1.
[61]- رشدي، صدى الصّحافة، وادي ميزاب، العدد 83، ص2.
[62]- ما يشبه مراكز التّكوين المهني اليوم.
[63]- أبو اليقظان، "ألّي ما عندو شاهد كذاّب"، الأمّة، العدد 76، 26 ماي 1936، ص1.